ملكيّة الجدّات وانعكاساتها على سلوك النساء المالي عند الطوارق

مريم بوزيد

تمهيد

لم يكن العمل على مجتمعات الطوارق وليد الصدفة ولا التلقائيّة بل كان سببه الدخول في نقاشات حول النساء وأشكال السّلط التي صادفتني وأنا على مشارف الانتهاء من بحث حول المواقعيّة[١]. إذ وجدت قوائم طويلة لمواقع تحمل أسماء نساء أي ما يطلق عليها matronymes فوجّهت السؤال إلى المجتمع (كانت الدراسة في إحدى المدن المحاذية للعاصمة، أي مدينة بومرداس)[٢] إذا ما كان الناس يتماهون بهذه الأسماء فلم أجد سوى نكران وعدم التعرّف عليها بل والأكثر من ذلك تحويرها وتعديلها لتصبح أسماء ذكوريّة (فتصبح نورة نور، ونفيسة نفيس وهكذا) فتمّ توجيهي للاطّلاع على نماذج لسلط نسائيّة عند الطوارق، باعتبارهم نموذجاً رائداً لسيادة النساء حتّى أضيء بعضاً من جوانب تلك الإشكاليّة.

كانت تجربة العمل بهذا الميدان البعيد، وبقلّة الامكانات المتاحة للعمل الأنتروبولوجي

(١) أثناء العمل المتعلّق برسالة ماجستير نوقشت بجامعة الجزائر ١٩٩٤، وكانت تحت عنوان: أسماء الأمكنة وإشكالات تملّك الخطاب والفضاء. تترجم Toponymie بالمواقعيّة أو أسماء الأمكنة.

(٢) تقع شرق العاصمة وتبعد عنها حوالي ٥٠ كم.

واحدة من تجارب العمل على الذات، على الجسد مباشرة، لمختلف العلاقات التي «فُرضت» عليّ بداية ثمّ تأسّست عن قناعة، للأهداف العلميّة المتوخّاة من دخول حميمي وعميق في جوانية الظواهر التي تتأسّس على علاقات النساء بالرجال، إذ أنّ الاقتراب من الذوات وملامسة تلك الجوانب الرقيقة المتأزّمة لم يكن أبدا منافياً للموضوعيّة بل هو جدل مستمر بين الذاتيّة المفرطة لحدّ «الإغماء» والموضوعيّة، موضوعيّة فهم العلاقات الإنسانية من منظور العلم الإنساني.

كانت البداية صداميّة في البحث على المجتمع من خلال الرجال، فهم لا يعترفون بوجود المرأة خارج الغرائز ولعبة الإغراء، لكن ومع هذا تحمّلت نتيجة بعض أخطائي في التعامل مع الرجال في أحايين كثيرة لأنّني كنت أنتهك عتبات رجولتهم مرّة بالسّؤال ومرّات بالهندام والشكل الخارجي، فما الذي يمكن انتظاره من باحثة امرأة تتعطّر وتكتحل وتلبس لباس النساء هناك وتذهب لموعد ليليّ مع أحد شيوخ القبيلة في غرفة شاسعة الأبعاد على ضوء مصباح خافت والحديث عن الزواج واختيار الشريك وعن تلك المناظرات الشعريّة الغزليّة بين النساء؟

أعتقد أنّ النهاية معروفة لديكم، فقد كنت كالفريسة التي تبحث عن قنّاص، كتمت أنفاسي وابتعدت عن جسد رجل عملاق بتغيير السّؤال إلى منحى الحروب القبليّة فامتنع الشيخ عن الكلام، فلقد أدرك خيبة أمل بينما اتّسعت الخيبات عندي لأنّني لم أحصل على مرادي ولأنّني كنت عذراء من كلّ التجارب تلك. صدمت ثمّ لملمت أثوابي وجلست رفقته أمام السلطانات[٣] وتناولنا عشاءً لذيذا رومانسيّا على وقع الضحكات وغمز وهمس النساء، فما حدث معي كان «طفوليّا» بالنسبة لهنّ.

وهل هي توبة أم عناد على الفهم والاقتراب من الأعماق، ازددت فضولا وتفهّماً وحبّاً لكلّ ذلك المجتمع الذي يعرف كيف يسيّر مشاعر الغضب والحبّ والتعدّي، وهذا ما جعلهم يفتحون لي قلوبهم ومؤسّساتهم فبدأت أحضر مناسباتهم واحتفالاتهم وأشارك في مختلف طقوس الحياة من أفراح وأحزان وشعائر وكان

(٣) يطلق عليهنّ باللفظ المحلّي «تمنوكالين» وهنّ الوحيدات بعالم الطوارق المتوزّعين على الخمس بلدان (الجزائر، مالي ، النيجر، ليبيا وبوركينا فاصو) ممّن مازلن يحتفظن بلقب السّلطانات ويحظين باحترام وسمعة كبيرين، وكنت كلّما قصدت منطقة «إهرير» حيث يتواجدن وهي منطقة تبعد عن «جانت» بحوالي ٢٠٠ كم، أقصدهنّ وأمكث عندهنّ ومن هناك أتنقل بين حنايا تلك الواحة الغنّاء.

الفضل للنّساء في احتوائي وإشراكي في مختلف جوانب حياتهم، وعلّمنني كيف أكون امرأة وكيف تكون المرأة جميلة في مجتمع يقيس كلّ الأشياء عكس ما يجري عندنا بالشّمال.

فإذا كانت الملاحظة بالمشاركة هي لبّ تقنيات المنهج في الأنثروبولوجيا، إلاّ أنّ ذلك لا يكفي إن لم تتوّج بمختلف المشاركات الوجدانيّة التي تربط الباحث بمجتمع بحثه: فالتجارب البحثيّة تغيّر الباحث من الدّاخل وتزعزع العديد من قناعاته وتوسّع آفاق رؤاه والأكثر من ذلك أن بات من الشجاعة الكلام في تلك المسائل «الصغيرة » التي تكبر يوما بعد يوم بالميدان وندوّنها على الدفتر اليوميّ ونتحاشى الخوض فيها«خوفا» و«حياءً»: إذ نخاف من أنفسنا وأحاسيسنا وكيف تتدخّل في إنتاج المعرفة، وهناك حياء المكانة الاجتماعيّة والأكاديميّة التي نعمل لها ألف حساب، لكنّني ضربت عرض الحائط كلّ ذلك.

١. النساء والخيرات الماديّة عبر التاريخ

لا يمكننا أن نفهم سلوكات النساء الطارقيّات الماليّة ولا تصرّفاتهنّ تجاه المال ما لم نبحث في أصول الملكيّة والخيرات التي تنتقل إلى كامل الجماعة عن طريق النساء. ففكرة الاستقلاليّة الماليّة للنساء في تلك المجتمعات قديمة قدم تاريخهم، فليست مرتبطة بقوانين ولا بديانة معيّنة، بل ترتبط بالأعراف ولا أحد يمكنه التكهّن بتاريخ تلك الملكيّة. تبقى الكلمة الفصل في ذلك، الروايات الشفهيّة التي ترسلنا إلى عوالم الرموز والدلالات.

تتمثّل هذه الملكيّة لدى مجتمعات «الآزجر» في ما يطلق عليه ب«الخبس»، وهناك تسميات أخرى هنا وهناك في بلاد الطوارق كما سنتطرّق إليها لاحقا.

١.١ موضوع الملكيّة العقاريّة: «الحبوس» عند الطّوارق

في البداية نحاول تعريف ما المقصود ب«الحبوس» هنا؟ لا يتعلّق الأمر بأيّ حال من الأحوال بالمفهوم الإسلامي ل «الحبوس» والأوقاف، بل باختصار هي ملكيّات تتعلّق بالنّساء وللنّساء فقط، وبالرّغم من تعقيد هذا «المفهوم» وتعدّد معانيه سنحاول تلخيص معناه في ميدان معيّن وهو منطقة الواحات «التّاسيلي ن آزجر»، منطقة تقع أقصى الجنوب الشرقي الجزائري بالصحراء الوسطى على تخوم ليبيا

بواسطة مدينة غات، و جمهوريّة النيجر بواسطة «آغليت» ، إذ تبعد غات عن جانت ب« ٢٠٠كم» والنيجر ب ٤٠٠ كم، بينما تبعد عن مقرّ الولاية «إليزي» بحوالي ٤٢٠كم وعن العاصمة الجزائر ب ٢٣٠٠كم.

١.١.١. أصل «الخبس»

يطلق عليه محليّا «الخَبَس» وهو تلك الملكيّة المتمثّلة في جنان النخيل ومنابع المياه والمساكن بالقصور، والتي انتقلت في زمن تاريخيّ ما للنساء، كيف ذلك؟

تنقل لنا الروايات الشفهيّة أنّ ذلك حدث بواسطة بعض «السلاطين» الذين كانوا يحتكمون على السلطة السياسيّة المتمثّلة في سلطة الطّبل التي يطلق عليها «تَمْنُوكْلَة»[٤] ويصبح السلطان «أَمَنُوكَال» والمرأة «تَمَنُوكَالْتْ» وهم الأوائل ممّن قاموا بكتابة تلك الملكيّات المختلفة على بناتهنّ، أو على نساء القبائل الأخرى «ذات سيادة» (tribu suzeraine) أو نساء القبائل التّابعة (tribu vassale)، سأذكر هنا رواية عن السلطان «ڤوما»[٥] وأخرى عن أحد أفراد قبيلة من القبائل المهمّة في المنطقة وهي «الإفوغاس» وهو «أفاغيس أحمد».

الرواية الأولى:

فالسلطان الأوّل «ڤوما» من قبيلة ذات سيادة صالت وجالت في العديد من البلدان، فقد شمل طبل سلطتها طوارق الشمال «الهُڤَارْ» والتَّاسِيلِي نَ آزْجَرْ، وطوارق «ليبيا» وطوارق «النّيجر» وكان هو آخر السلاطين وكان مستبدّا فكانت نهايته بشعة، حسب الروايات، ولم يترك ذكوراً وراءه بل ترك فقط بنتين هما «عيشة» و«النّما» ربّما هذا ما جعله يفكّر في ضمان مستقبل ابنتيه.

الرواية الثانية:

لقد كتب «الأمنوكال» الأول، فيما مضى الوثيقة الأولى ل «الخبس» على جلد

(٤) يدلّ هذا اللّفظ على السّلطة السياسيّة عند الطّوارق، والتي تنتقل بواسطة النساء، إذ يشترط في انتقالها لدى قبيلة «الإمنان» أن تكون الأمّ من نفس القبيلة أو ذات شرف وحظوة، حيث تنتقل من الأخ إلى الإبن الكبير للأخت الكبرى ولا تنتقل للأبناء، أي في حالة وفاة «الأمنوكال» أي السلطان لاتورّث مكانته لأحد أبنائه بل لأبن أخته وهذا ما يطلق عليه: droit d'aînesse.

(٥) هو آخر سلاطين هذه القبيلة والذي حكم كامل المنطقة خلال القرن السادس عشر، وهو من الأشراف الأدارسة من المغرب الأقصى حسب شجرة نسبه.

غزال وهو في كامل قواه العقليّة، وهذا ما أكّدته لي إحدى النساء قائلة: اكْنِيغْ أَوَا أُورْ مْزَلْزَلَغْ، أُورْ مْشَلْشَلَغْ، إشارة إلى أنّ أحد «الإفوغاس»[٦] هو الذي كتبه باسم «شيت تربونة» (أي نساء قبيلة «تربونة» فلفظ «شِيتْ» يدل على النّساء و«كِيلْ» يدلّ على الرجال) قبيلة المتحدّثة[٧]، والأمر قد يختلف بالنسبة للمجموعات والفرق الأخرى المكونة للقصوريّة(كيل آغرم: سكّان القصر).

فخبس مجموعة «تربونة»، إحدى القبائل المكوّنة لقصر «ازلوان»، كان بإيعاز من رجل من «الإفُوغَاسْ» يدعى أحمد، حدّد ملكيّة هذا الخبس من المكان المسمّى «كِيلَلْ» حتّى المكان المسمّى «آضَرْ نْ تَكْلِيتْ»[٨] في تلك الفترة (ذلك الزمان) كانت جانت جميلة لم تلوثها يد(جانت تهوسي مازال أو أجّزنت الدونت) وقال ساعتها قولته المشهورة بين «شيت الخبس» هذا، أي بين نساء تربونة، وغيرهنّ:

«أور مضريّغ اد ود تيوض تيتّي، أو وشّرغ اتّوسار دغي تيتّي»

يعني هذا القول:

«لست صغيرا دون عقل، ولست مسنّا نقص عقلي، أي خرفت»، قال هذه العبارة حتى لا يأتي أحدهم ويتّهمه بالقصور العقلي لأنّه قام بهذه الفعلة، التي ليس بالسّهل التعوّد عليها مستقبلا مع كلّ ما سيحدث من تغيّرات، إنّه بُعد نظر من الأوائل، وحسن تصرّف لحماية النّساء من كلّ طارئ.

وحتّى تكتمل صورة «الأفاغيس أحمد» تذكر النّساء هذه العبارة، بلغة وصواتة «كيل آضاغ»، فيصبح القول:

أُورْ مْشَلْشَلَغْ أُورْ يِوِيتْ آضُو (أُورْ يْجِي آضُو)، أي التّأكيد على سلامة قواه العقليّة.

---

(٦) من قبيلة «الإفوغاس» وهي من القبائل ذات سيادة محدودة ومنتشرة في شمال مالي وبعض المناطق الأخرى المجاورة وهم أيضا يدعون النسب الشريف وينتقل النسب فيها عن طريق الرجال لا النساء.

(٧) السيدة تارزغ بن عومر من قبيلة تربونة، وهي من القبائل الثلاث المكوّنة لمجموع سكّان قصر «زلوان»، فمدينة «جانت» تأسّست في الماضي على ثلاثة قصور(والقصر هنا كنمط معماري صحراوي ولاعلاقة له بالسّلطة أو الجاه) وهي قصر «زلوان» وقصر «الميهان» وقصر «جاهيل»، وكلّ المجموعات البشريّة بهذه القصور تأسّست حول الجدّات المؤسّسات لا الأجداد المؤسّسين كما هو متعارف عليه.

(٨) يعني اسم هذا المكان الأخير: رجل العبدة، وهو موجود قرب منطقة «إهرير» مكان إقامة السّلطانات.

إذا يرتبط الأصل بالملكيّة، ملكيّة الخبس المتعلّقة بالنّساء في مختلف المجموعات المشكّلة للواحة، فعند التطرّق لأصل «تَرْبُونَة» تقول الحَاجَّة تَارْزَغْ:

«تَمَطْ نَ آفَاغِيسْ دَغْ نَكْنَى، وَلْتْ تَرْبُونَة أَفَاغِيسْ أَبَّا نِّيتْ، نْتَ يَخْبَاسْ فُولَّسْنَتْ (إِهَرِي) مَنْ «تَبَكَاتْ»[٩] آرْ آضَرْ نْ تَكْلِيتْ.» بمعنى أنّ جدّة قبيلة تربونة والدها من الإفوغاس، وهوالذي قام بوقف ممتلكاته على بناته، والتي حدّدت مجاليّا من «تبكات» حتى منطقة «آضر ن تكليت» وهناك من يقلن من: «كِيلَلْ» إلى «آضَارْ نْ تَكْلِيتْ» ب«إهرير». وكتبه على ابنته «غيشة» (أي عائشة).

كذلك وعند التطرّق لأصل «كِيلْ تِمَمَّلِينْ»[١٠] يرتبط الأصل بالملكيّة، أي ب«الخبس» وحدوده التي تقع من «الكازرنة (الثّكنة) تجاه طريق إليزي»[١١] إلى «رُودَدْ» حدود «تشاد» كما سبق وأشرنا إلى ذلك.

وفي منطق هذه المؤسّسة كما سنرى، في دراستنا لوثيقة «الخبس» التي بين أيدينا، أنّه يتمّ ذكر الوارثين المحتملين في حالة انقراض المجموعة الأولى المخولة لهذه الملكيّة العقاريّة المتعددة المصادر، لذلك سيعود «خبس كيل تربونة» في حالة فنائهم وانقراضهم لقبيلة «الافوغاس» أينما كانوا، وكذلك الأمر بالنّسبة ل«خبس تمملين».

لكن، حسب الروايات التي نقلها دوفيرييي (Duveyrier) أنّ سلاطين «الإمنان» هم أوّل من قاموا بهذه الخطوة، وأرسوا لتقاليد كتابة «الخبس» على النساء من القبيلة، وليس «الإفوغاس» أو ربّما وُجدت تلك التّقاليد عند عموم القبائل ذات السيادة، إذ تقول الرواية:

«في يوم من الأيام دعا قائد «الامنان» لبلاطه النساء المسنّات النبيلات ممّن كان لبطونهنّ المقدرة في إنجاب القادة، وبدافع إحساس بالسّخاء واللّباقة، قام بتعيين عقار لكلّ واحدة منهنّ، فأخذت سيدة «الأوراغن» حصّتها متمثلة في سهل

(٩) منطقة بالقرب من الملعب البلدي الموجود بمنطقة «بني وسكن» وهذه الأخيرة عبارة عن مساكن فوضويّة في الأصل ثم زودت بالمؤسسات الرسمية كقاعة علاج، ومدرسة.

(١٠) توجد هذه المجموعة القبليّة بقصر «الميهان» وجاءت هذه الروايات ومعلومات أخرى قيّمة على لسان السيّدة «سنّي».

(١١) تعتبر مدينة «جانت» دائرة حسب تقسيمات ١٩٨٤ وولايتها «إليزي»، بلغ عدد سكّان مقرّ الولاية ١٨٢٥٠ نسمة، بينما بلغ عدد «جانت» ١٥٦٩٠ نسمة من بينهم ٤٧٦ من الرحّل وهذا حسب إحصائيّات ٢٠٠٨.

إغرغرن(تغرغرت) وكان لسيّدة «الامنغساتن» قسمتها المتمثلة في واد «تخامّلت» فتمّ تخصيص وقف كلّ قبيلة بنفس الطريقة».[١٢]

يمكننا أن نستنتج من كلّ هذا، العديد من العناصر التي تلقي بالضّوء على علاقات السلطة والتاريخ الاجتماعيين للآزجر، فقد تكون محاولة «الأمنوكال» (السلطان) هي نوع من الموازنة بين جميع الفئات والجماعات لحدوث الاستقرار، وربما بروز الأدوار السلميّة التي لعبها رجال من الفرع الآخر لقبيلة «الامنان» ممّن لم تكن السلطة هاجسهم لأسباب يصعب الخوض فيها:

١. إنّ نظام الخبس هو «اختراع» قادة وشيوخ قبيلة «الامنان» وإن أتى به من لحقهم، فذلك ربما تقليدا وأسوة بهذا الفعل لما رأوا فيه من نتائج إيجابية على كامل المجتمع.

٢. جاء ذلك للتّشديد على المكانة التي تحظى بها النّساء، عموما، وتلك النّبيلات التي تدبغ بطونهن الأصل، وتعطيه الهويّة الاجتماعيّة والسياسيّة للأبناء، وهذا كون «الامنان» أشراف من الآباء ونبلاء من الأمهات، ولا يمكن أن يكون الرجل «إمنانا» إن لم تكن الأمّ من قبيلة سيّدة، وإن كان الأب شريفاً، أو نبيلاً، عكس قبيلة «الأوراغن» التي قد تغيّر فيها بعض الحالات أسس انتقال «تمنوكلة» (السلطة السياسيّة) وتجعلها ليّنة نوعاً ما، ولنا في تاريخ هذه القبيلة نموذج: «الأَمْنُوكَالْ» إبراهيم آڤ أبكّدا[١٣] الذي كان والده من «الأُورَاغَنْ» من فرقة «كِيلْ مِيهْرُو» وأمّه من التبّو واسمها «ميّا»، والذي كان يعاني طيلة فترة شبابه من سوء معاملة من طرف عمّه بوبكر آڤ لڤوي وابن عمّه خوسيني.[١٤]

وكما لنساء «تربونة» (شيت تربونة) حكاية عن مؤسّسة «خبس» الجدات، هناك حكايات أخرى عن ذلك حسب القبائل والمجموعات التي تقطن القصور المختلفة ب«جانت». فهناك «خبس» «كيل إجيف» بقصر «زلواز» دائما و«خبس» «كيل تِجِيرِيتْ» و«دِرَوَنْ» بقصر «اجَاهِيلْ» وهناك خبس« تِمَمَّلِينْ» و«اجْدَلْ» بقصر

(١٢) DUVEYRIER, H. Les Touareg du Nord. Exploration du sahara, Paris, Challamel Aineˆ, 1864, P: 324

(١٣) « آڤ» بمعنى إبن والأنثى «ولْتْ» أي إبنة.

(١٤) Vacher, M. « Brahim Ag Abakada, Amghar des Ajjer. », Encyclopédie Berbère (Edition provisoire), cahier n°32, 1983.

«المِيزَانْ» أو يطلق عليه «المِيهَانْ». كما ليست كلّ المجموعات معنية ب«الخبس»، فهناك مجموعات «آرَابَنْ» من قصر «زَلْوَازْ» و«تْغُورْفِيتْ» من قصر «المِيزَانْ» و«بِرِي»[١٥] من قصر «اجَاهِيلْ» لا توجد لهم «خُبُوسْ». ماذا يعني هذا؟ وما تفسير كلّ ذلك؟

تقول إحدى النساء، من فرقة «تمملين» إنّ سكّان «جانت» الحقيقيّين هم من يمتلكون نظام «الخبس»، وهم، حسب نفس السيّدة:

«تمملين لاّن الخبس، كيل تجيريت لاّن الخبس، كيل اجيف لاّن الخبس، كيل تربونة لاّن الخبس، كيل درون لاّن الخبس...»[١٦] (أي أنّ مجموعات كلّ من «تِجِيرِيتْ» و«إِجِيفْ» و«تَرْبُونَة» و«دِرَوَنْ» عندهم ملكيّة «خبس») أي من هم المعنيون ب«الْخَبْسْ» في «جَانَتْ».

إذا ترتبط مؤسّسة «الخبس» بأصول المجموعات والفرق المتواجدة في القصور المختلفة ب«جانت» أي بأصول الجدّات المؤسّسات للجماعات والمحددات للمهور والحدود في بعض الأحيان، أي الجدّات المعروفات المصدر، كما جاءت بذلك حكايات وأساطير الأصل.

كما يبدو أنّ مؤسّسة «الخبس» هذه شديدة الارتباط بطبيعة الأصول، إن كانت نبيلة، أو دنيا. فكما رأينا أنّ أحد سلاطين «الإمنان» جمع في البداية نساء القبائل ذات السيادة وحبس عليهنّ سهولاً خصبة بالمنطقة، ثمّ انتقلت التّقاليد تلك وشملت المجموعات الأخرى، والأهمّ من ذلك أنّها، أي تلك الملكيّة بالواحات، أو ما يحيط بها من بساتين وأراضٍ خصبة.

٢.١.١. خيرات الخبس: القوّة اقتصادية والملاذ الآمن

تأخذ هذه المؤسّسة أسماء ودلالات مختلفة باختلاف تواجد الطوارق وإن جمعتها حيازة النّساء لكلّ تلك الخيرات ذات الطّبيعة المختلفة من مكان لآخر. وعن تسمية هذا النّوع من الملكيّة النّسائيّة ب«الخبس» جعل هيلين كلودو حواد (Claudot-Hawad)[١٧] تنتقد إطلاق هذه التّسمية لما يحدث عند طوارق «كيل

(١٥) ومع هذا فإنّ الوثيقة التي بين أيدينا هي مخطوط «خبس» مجموعة «كيل بري» من قصر «جاهيل».

(١٦) السيدة سني من تمملين.

(١٧) في مقالها المعنون: « Le lait nourricier de la société ou la prolongation de soi chez les touaregs », in Héritier en pays Musulman,

فروان» بالنيجر، من خلال الدراسة التي قام بها كازاجوس (Casajus)[١٨] وتقول في الهامش(٨) إنّ الطابع القديم لخيرات الابول مقارنة مع الإرث الإسلامي قد فلت تماما من بعض المؤلفين مثل د. كازاجوس مثلا (١٩٨٢) الذي، باعتماده، على ما يبدو على معلومات مرابط محلّي(فقيه أو عالم دين)، قد خلط بين مؤسسّة تقليديّة والحبس(الذي يلفظ خبس في بلاد الطوارق) الذي هو قاعدة إسلاميّة من طبيعة أخرى.

حيث ميّزت كلودو حوّاد، بين خيرات «الابول»(biens d'ébawél) والخبس، أو الخبوس. فالمقصود ب«الابول» هو حفرة صغيرة حيث تستقرّ وتثبّت الأدوات والعناصر، إنه مكان يمنح الملاذ ويوفّر الحماية ويضمن بعضاً من الاستقرار والسّكينة. كما تعبّر هذه الكلمة عن الحفرة التي تضع الاناث فيها بيوضها لكي تكون محميّة إلى أن تفقس. كذلك هو الحفرة حيث توضع المواشي من الماعز أو الكباش ... وتواصل بأنّه عند « كيل آير»، يستعمل هذا اللّفظ للدّلالة على الملاذ الذي تمثّله القرابة الأمومية (الأم، الجدّة من الأمّ ، الخالة...) حتى تصل إلى مفهوم «الابول» الواسع والذي يعني أو يتضمّن: الأسلاف المؤنثة (تمروت) أو القرابة الأمومية.[١٩]

تسترسل الباحثة، في إعطاء تعاريف لذلك المفهوم المركّب الغزير الدلالات والصعب التّحديد، لأن تقول: «يعرّف الإبول على أنّه نسب عن طريق الأم حيث تكون نواته المركزيّة المؤنث، أو الإناث بينما حوافه مشكّلة من عناصر ذكوريّة والتي يُطلب منها الانفصال عن المجموع».[٢٠]

تتمثّل خيرات « الإبول» في البداية فيما يعطيه الأخ البكر (الذي يطلق عليه امكني ن ابول) أو «انكراس» أي الباني أو المشيّد، الذي يرتّب ويقوّي، لأنّه هو الذي يعطي حليب الإبول (آخ ن ابول) أي الذي يغذي «الابول» والذي يسمح له بالبقاء والوجود، والذي يعطيه استقلاليّته وإمكانيّة تحمّل دوره كملاذ. يساهم هذا الرجل في بناء «الإبول» بمنحه القطيع (في البداية، يتعلّق الأمر بقطيع صغير، تحفظ له النساء المراقبة التامّة)، وفي السّابق كانت تُمنح نساء عبدات (تكلاتين) كقوّة عمل،

(١٨) تلك المتعلّقة ب: « Le mariage préférentiel chez les Touaregs du Nord du Niger », in Journal des Africanistes, T. 52, 1-2, 1998

(١٩) Claudot-Hawad, H, « Le lait nourricier de la société... », p: 131

(٢٠) Op.cit, p: 133

وخيرات أخرى (بساتين، أشجار...). ومن جهة أخرى يقوم هذا الأخ البكر المانح، بتسليح ابن أخته (تجيزي) الذي يصبح حامي «الإبول» وخلفه الشرعي.(٢١)

وهذه الخيرات، تتميّز تمييزاً دقيقاً عن الخيرات الأخرى التي تنتقل حسب قوانين الشّريعة الإسلامية، كالميراث والذي يطلق عليه اسم «تكاشيت».

أردت أن أسهب في تعاريف هلين كلودو حواد وانتقادها لدومنيك كازاجوس، للتعمّق في هذه المؤسّسة التقليديّة كما تسمّيها، والتي بالفعل يمكن أن نقول إنّها بقيت من الذكريات، كغيرها من المؤسّسات الأخرى في بلاد الطوارق، لأنّني سأتطرّق لمؤسّسة يطلق عليها كافة طوارق الآزجر لفظ «الخبس» دون أن يخلطوا بينها كقاعدة إسلامية جاءت لأغراض مغايرة لخبسهم الذي يعرفون قواعده ونظامه ورموزه، مكتوباً ومحفوظاً كما يحفظون القرآن أو أكثر، ويحكمون إغلاق خزائنه. ولسنا مطالبين بالذهاب إلى مناطق أخرى لنستلف مفهوماً يبدو أنّه الأصلح في التّعبير عن هذا النّظام، وهنا بالفعل سنكون قد وقعنا في خطأ تحميل المعاني أكثر ممّا تعنيه داخل سياقها التاريخي والاجتماعي.

ننتقل إلى مثل ملموس لتناول الملكيّة عند نساء الطوارق بنموذج خاصّ هو ملكيّة مجموعة «كيل بري بقصر جاهيل» بواحة «جانت».

تقول الوثيقة، في الصّفحة الأولى(٢٢):

« وصلى اللّه على من لانبيّ بعده

وثيقة الحبس المعروف من أرض وعقار وعيون ونخيل وعيون وريع وحبس على نساء من افاهل (اقاهل، أي اجاهل) من قبيلة اهل بري بنات زينب بنت شيب وامينة بنت عثمان واختها عيشت (عيشة) وبنات اختها وبنات اختها عيشة كديوا بنت عومر واخواتها عيشة وخيك وبنات وبنات لم بنت شيب ايضا مريم بنت محمد واخواتها وكذالك بنات فاضم (فاطمة) عيش مريم بنت احمد واخواتها تفار وبنات الهوى (الهوني؟) وبنات فاضمات بالاختصار على من هو سابقاً قديماً في يد امهاتهنّ أمّ (الصفحة الثانية) بنت محمد علي وفاضم وأمهاتهن حبساً مرتباً عليهن حتى

(٢١) Op. cit, p : 134

(٢٢) يتكوّن المخطوط من ١٤٧ صفحة مكتوبة بالخطّ المغربي (أنظر الصفحة الأولى من المخطوط) في نهاية المقال.

ينقرضن ثم بناتهن حتى ينقرضن ثم بنات بناتهن حتى ينقرضن واستمرّ الترتيب على ذلك حتى ينقرضن فإن انقرضن رجع (مكتوب بخط رفيع بين الأسطر في اتجاه شاقولي نحو أعلى الصفحة) على بنات اجاهل من غير تخصيص بنات ادرون واهل ايتمالك واهل تجارت واهل تيجيريت وثم رجع على الذكور لذلك وقفا تاما عاماً قاطعاً مقطوعاً لارجوعاً في ذلك ولا ندامة ومن بدل وغير في تلك الحبس فالله يتولاه وينتقم عليه جبريل وميكايل واسرافيل وعزراءيل وحمالة العرش والانبياء ومحمد هو خاتمهم والرجال ياكلون في حياتهم ولايوهب ولايباع ولايورث».

بعد هذا يبدأ في تعيين الملكيّة.

تعتبر هذه الوثيقة بمثابة «الثورة» في تعيين ملكيّة «الحبس» وتخصيصها، إذ يجمع سكّان «جانت» بوجود مجموعات قبليّة بحوزتها ملكيّات «الحبوس» التي يطلقون عليها «كيل الخبس» ك: مجموعات «تَرْبُونَة» و«تِمَمَّلِينْ» كما رأينا و«إِجِيفْ» و«تِجِيرِيتْ» و«دِرَوَنْ»، لكن تستثنى بعض المجموعات مجهولة الجدّة أو المغيّبات من التّاريخ: ك«ارَابَنْ» و«تْغُورْفِيتْ» و«بِرِي». لكن تكسر لنا هذه الوثيقة تلك الأطر التصوريّة التقليديّة المكرّسة للأصل والفصل الرفيعين، فمجموعة «بِرِي» في قصر «اجَاهِيلْ»[٢٣] مجموعة يقال إنّها مجهولة الجدّة تكون قد قدمت(هذه المرأة أصل مجموعة «بِرِي») من تشاد أي من «التَّبُّو» ولأنّها لم تكن تعرف اللّغة المحلية للطّوارق[٢٤]، كانت تردّد لفظ «بري بِرِي» أي اجلس هنا،[٢٥] للدلالة ربّما على الاستقرار بالمكان. إذ يتأكّد لنا أنّها مجموعة عريقة الوجود بالمنطقة، وإن كانت من منطقة أخرى، لكنّها من إفريقيا السّاحليّة على أكثر تقدير، وتدخل في منطق النّساء المؤسّسات للنسب «الأمومي» (Matrilinéarité) و«سيادة الأمّ» (Matriarcat) حسب فرضيّات الشّيخ ديو.[٢٦] وهذا حسب رأينا هو سبب اقتصار مثل هذه الملكيّات «الثابتة» في المخطوط والتي تذكر اقتصارها على النّساء من جيل لجيل.

(٢٣) تتكوّن واحة جانت من ثلاثة قصور رئيسيّة، قديمة وهي : قصر الميهان وقصر زلواز وقصر اجاهيل، القصر هندسة معماريّة تقليديّة منتشرة في الصّحاري المغربيّة.

(٢٤) يطلق على لغة الطوارق «تماهق» (طوارق الشمال الموجودين بالجزائر.).

(٢٥) حسب ما قالته لنا إحدى النّساء من «جانت».

(٢٦) يقترح عدة شروط في المجتمعات التي عرفت نظام سيادة الأمّ (١٥ شرطا) ويقول بعدم عالميّة هذا النظام كما سارت عليه الفلسفة النسويّة انطلاقاً من أفكار «إنجلز» و«باشوفان» وهذا في كتابه:
Antériorité de l’Afrique. Présence Africaine, 1967.

فإذا تفحّصنا هذه الورقة الأولى من المخطوط نجد المعلومات الآتية:

تبدأ الوثيقة في ذكر طبيعة الملكيّة ومكوّناتها، فهي تتعلّق بالمعروف من الأراضي وعقار وعيون ونخيل وريع. والمعنى من قوله عقار ربّما فيه إشارة إلى ملكيّة البيوت، لأنّ المساكن أيضا حبست على النّساء، كما هو الحال بالنسبة لعيون الماء والنّخيل والريع (ثمّ تأتي الوثيقة لذكر أسماء النساء صاحبات هذه الملكيّة وذكر أمّهاتهنّ وجدّاتهنّ: في الأوّل تخصيص عام للملكيّة، أي «نساء أجاهيل» ثمّ ذكر القبيلة بالضبط، أي «قبيلة بِرِي» ، ثمّ يأتي ذكر النساء كما يلي: بنات زينب بنت شيبا وأمينة بنت عثمان وأختها وهكذا نلاحظ أنّ أسماء الآباء مختلفة لكن لا يوجد ذكر للأمّهات فهنّ النساء الأوائل بنات القبيلة الكبرى المشتركات في الأصل النسائي.

٢. نساء «جانت» وسلوكيّاتهن المالية حاليا

بالرّغم ممّا حظيت به نساء القبيلة الأوائل من استقلاليّة اقتصاديّة بامتلاكهنّ للأراضي والنخيل ومنابع المياه والمساكن القديمة في القصور، إلاّ أنّ ما يلاحظ للوهلة الأولى أنّ سلوكات النساء اليوم استهلاكية محضة بالنسبة للشابّات، بينما النساء الأكبر سنّاً مازلن يقمن بخدمة الأراضي المحبوسة تلك بمساعدة بعض العبيد السابقين أو الخدم من الرجال الوافدين من النيجر ومالي والكامرون وغيرها من البلدان المجاورة[٢٧] إذ يعزف الأبناء عن تلك الأعمال.

يقوم الرجال بشراء كلّ مايلزم النساء حتّى الأغراض العاديّة البسيطة، حيث أنّ الصداقات والعلاقات بين الجنسين تتأسّس على مقدار ما يقدّمه الرجل للمرأة من هدايا مختلفة وأغراض: ملابس، عطور وحليّ. كما يحقّق لهنّ رغبات التنقّل بالسيّارات وزيارات المجاملات في نظام منسجم دون تشنّج أو رفض قد يعجب لها من هو خارج ذلك المجتمع أي وفرة الخدمات تلك التي تحظى بها النساء.

(٢٧) بعد موجات المجاعات والجفاف التي ضربت بلدان الساحل الإفريقي والحروب، تشهد جانت وتمنغست (مدن جزائريّة على الحدود) توافد موجات من الرجال والنساء، الذين أصبحوا يشكّلون يداً عاملة بالبساتين والمنازل وحتى الشركات الخاصة، يقومون بالأعمال الشاقّة، ثمّ يطردون إلى الحدود بفعل حملات «التطهير» التي يقوم بها رجال الشرطة والدرك، بينما يقوم الأهالي بالتستّر عليهم ويخرجون ليلا فقط.

إذ تبدو هذه السلوكات كنوع من «الابتذال» العاطفي و«السّمسرة» الجنسيّة. لكن في واقع الأمر، قد يكون ذلك تذكيراً لاواعياً للرجال من طرف النساء للجميل والفضل الذي شملهنّ من الجدّات إذ يقلن بأنّ الرجال يأكلون ولا يملكون، وبقوا بالفعل يستفيدون من معظم تلك الخيرات لحدّ الساعة من تمور مختلفة الأنواع وقمح و«بشنة» وجميع المحاصيل من خضر وفواكه.

في هذه المجتمعات التي تنتقل فيها الأنساب والخيرات الماديّة والسلطة السياسيّة عن طريق الأمّهات، هل يبقى ما يقدّمه الرجال اليوم للنّساء شيئاً يذكر أمام كلّ ما قدّم لهنّ عبر الأزمان، ولحدّ اليوم؟

إنّ نسبة إقدام النساء، على العمل في المؤسّسات الحديثة يتزايد بصورة كبيرة جدّاً، إذ لا يخلو بيت لا تجد فيه أنّ كلّ البنات من مختلف المستويات التعليميّة يشتغلن: في المستشفيات، مراكز البريد، المدارس والثانويّات ومختلف المؤسّسات الأخرى، فتوجد مدرّسات الفلسفة والتاريخ والمستشارات التربويّات والملحقات بالحفظ الأثري، كما نجد العاملات كمنظّفات وغيرها من المهن التي لا تحتاج لمستوى تعليمي، كما هناك المشتغلات في مراكز الشباب والحرف التّقليديّة ومهن أخرى تتوافق وطبيعة المنطقة ومترجمات من نوع خاصّ.[٢٨] كما توجد الناشطات بأعمال اقتصادية موازيّة[٢٩]: صناعة القفاف والسلال وغيرها من الحرف التي تقوم بها النساء من أعمار متقدّمة.

تسعى النساء عبر كلّ تلك النشاطات إلى تغيير العديد من العادات من بينها الاستقلال المادّي الفعلي للتوافق مع السلوكات الاستهلاكيّة الجديدة، فالسعي وراء تغيير المظهر وحساب الزمن والكنز كلّها عوامل استدعت ذلك الإقبال على العمل.

١.٢. الاهتمام بالمظهر: طقوس جسديّة

لا يعتبر الاهتمام بالمظهر الخارجي عند النساء، شيئاً عابراً أو غير ذي قيمة بل هو شأن مهمّ في الثقافة الطارقيّة، وليس ظاهرة هامشيّة كما نراه في العديد من

(٢٨) وذلك ضمن مشاريع PNUD حيث تستدعي بنات يعرفن العربيّة ليكنّ وسائط بين الخبراء في الصّحراء وموظفي ال PNUD والسكان المحليين من البدو، أي الترجمة من «تماهق» لغة الطوارق إلى العربية ثم الفرنسية.

(٢٩) كما توجد الفتيات ممّن شكّلن فرقا غنائيّة تحيي حفلات الزواج وغيرها من المناسبات، حيث نجد بكلّ حيّ من الأحياء فرقة خاصّة به.

مجتمعات الشمال. فليس من العيب الاجتماعي أن تتزيّن المرأة وتتعطّر لمقابلة المجتمع برجاله ونسائه وأغرابه. فالاهتمام باللّباس والأناقة يعتبر شأناً طقوسيّاً للجميع، بما في ذلك الرّجال إذ يعتبر من غير المقبول أن يأتي رجل لزيارة امرأة أو نساء دون أن يتأنّق ويرتدي ما غلا ثمنه ويتعطّر ويتبخّر، وهذا يمكن معاينته عند أوّل مناسبة إذ من العار أن يأتي الرجل بملابس العمل اليومي للزيارة والتحدّث.

واللّباس وإن كان في ظاهره تقليديّا من لباس محليّ أو لباس المجاورين لهنّ، فهو مرتبط بالموضة العالميّة من تقاطيع وألوان، فيتمثّل لباس النّساء الشّابّات والمتزوجات من الشّابّات في ما يسمّى ب«تسغنست» وهذه عبارة عن قطعة قماش مستطيلة الشكل يتراوح طولها بين أربعة وخمسة أمتار وعرضها متر وثمانون سنتيما أو مترين، متنوّع القماش والأشكال وتتغيّر موضتها حسب موضة القماش والاسم الذي يعطى له، وهو يأتي من «موريطانيا» مرورا ب«مالي» و«تمنغست»[٣٠] ليصل إلى «جانت»: والأسماء متعدّدة فموضة هذه السنة تتمثّل في ما يسمّى «الحوزة» و«بيبر» (biper) و«الريزو» (réseau) وهذا لانتشار الهواتف النقّالة بين النساء في هذه المجتمعات وما أحدثه من تغييرات على مستوى العلاقات الاجتماعيّة، ولا يمكن تصوّر السرعة التي انتشرت بها الهواتف النقّالة بين النساء ومن مختلف الأعمار، ويرتدى هذا اللّباس دون خياطة قد يشدّ بمشابك أو فقط بالعقد، ولأنّه شفّاف تلبس تحته مختلف القطع المعبّرة عن اتجاهات الموضة.

كما تحظى الوجوه، أي البشرة بالعديد من الطقوس التزيينيّة، حيث تعالج بمراهم مختلفة المصادر والوظائف: من مراهم تأتي من النيجر ومراهم انتشرت بفعل الإشهار على مختلف القنوات الفضائيّة ك: فير اند لافلي (fair and lovely) وغيرها. وهذا الاهتمام له مبرّرات جماليّة محضة قد ترتبط بمسائل طقوسيّة قديمة، فوضع أقنعة من مصادر نباتيّة وعضويّة على الوجوه أثناء الاحتفالات والشعائر والمناسبات كالميلاد وغيرها هي تقاليد ماتزال قائمة حيث تضع النساء أقنعة من الزعفران على كامل الوجه وأقنعة من المغرة الحمراء والصفراء وخطوط على الأنف (زلالا) حمراء وتسوّد الشّفاه بالنيلة الموجودة على مختلف أقمشة «آلشّو» التي توضع على الرّأس. فنتخيّل نساء في سنّ متأخّرة وهنّ يبحثن عن شقف المرايا

(٣٠) أو يطلق عليها تمنراست وهي مدينة في أقصى الجنوب الجزائري لها حدود مع مالي.

لوضع الكحل وتخطيط الحواجب وصناعة الوجه للمشاركة في احتفالات عاشوراء(سبيبة) أو حضور زواج أو تسمية المولود، لذلك تضع الشابّات طبقة من fond de teint التي لا تبدو طبيعيّة أبدا مع لون البشرة، فيعلّق الناس على ذلك بأنّها الرغبة في البحث عن بياض الوجه، بينما الصورة المرغوبة في هذا الفعل حسب رأيي هو التوافق بين التقاليد والموضة.

كذلك يحظى كامل الجسد باهتمام قد يبدو مبالغا فيه: إذ تشكّل مادة البخور وحدها عالما خاصّا يستلزم ميزانيّة خاصّة، لتجدّد الرغبات التي تتحقّق بواسطتها، إذ تتعلّق في مجملها بالجنسانيّة وجنسانيّة متطوّرة في اعتقادي، فتلعب البخور ذات العلاقة بالحياة الجنسيّة دورا رئيسيّا ضمن البخور الأخرى إذ تستعمل مباشرة بعد الاستحمام. وتتمثّل وظائف بخور «تَدْوَا» مثلا في تضييق المهبل لممارسة جنسيّة ممتعة للجنسين، وتستعمل النّساء كثيرا ما يطلق عليه ب «تَفَرْشِيتْ» وهو بخور للجسم والملابس بعد الاستحمام حتى تدوم، وهي تستعمل لتحريك الرغبات الجنسيّة لدى الرّجل، إذ تصبح تلك العقاقير المختلفة المصدر والوظيفة هاجساً لدى النساء تدور حوله مواضيع الحديث في مختلف الجلسات واللّقاءات فتقوم النّساء بالشّراء والتبادل فيما بينهنّ وتكون نقود «الشّبكة»[٣١] هي الدّعم الوحيد للعديد من النساء ممّن لا يقمن بأيّ عمل. ويبقى مجتمع النساء الرهان الوحيد الذي تبنى عليه الحياة الماديّة والمعنويّة للمجتمع هنا، مقابل أسفار السودان التي كان يقوم بها الرجال في القديم ومقابل ما يتحمّله الرجال حاليا نظير تجهيز بيت الزوجيّة من مسكن لائق وتجهيزه بمختلف الضروريّات والكماليّات.

كذلك تلجأ النّساء للاستدانة من مختلف محلاّت الملابس وغيرها لتظهر بالمنظر اللائق. ولباس الأعياد ليس مقتصراً على الأطفال بل الكل معنيّ بها، فحتّى الكبار يشترون الملابس الجديدة لاستقبال العيد ولصلة الأرحام، فالزيارات جماعيّة للجميع وتكون أوّل زيارة في أول يوم من عيد الفطر والأضحى للعمّة وهذا مع طلوع الفجر ويكون الغداء عندها.

(٣١) أي الشبكة الاجتماعيّة، أي منحة شهريّة تقدّر بثلاثة آلاف دينار لكلّ امرأة ماكثة بالبيت، وكانت تعطى هذه القيمة لهذه الفئة من النّساء مقابل قيامهنّ بتنظيف أحيائهنّ السكنيّة لذلك لم نكن نلحظ تواجداً للقاذورات، وبعد تلك برزت فكرة عبقريّة تقضي بمنح النساء ذلك المبلغ مقابل أن يتركن مهمّة التنظيف ل«مجهول».

٣. مجتمعات الهمس والرّمز

ما تزال الأعراف والتقاليد تسيّر العديد من مؤسّسات المجتمع، بالرّغم من أشباح التغّير التي تلوح في الأفق والتي تعتبر النساء جزءاً أساسيّاً فيها، إذ تعتبر النّساء من العوامل المحدّدة والمقرّرة للتغيّر الاجتماعي فخروجهنّ للعمل من التغيّرات الكبيرة بالمجتمع لكنّه لم يحدث آثاراً سلبيّة بل على العكس، إلاّ أن الاختلاط بالشمال وبقيمه المتناقضة في التعامل مع النساء، جعل أشباح العنف تتسلّل إلى مختلف المؤسّسات التقليديّة (ظاهرة الولادات خارج الزواج).

لكن بالرّغم ممّا يحاك ضدّ المجتمع جرّاء الدّخول في اقتصاد السّوق، تبقى جاذبيّة المجتمع تصنعها تلك العلاقات بين النساء والرجال ودلع النساء على الرجال، في طلبات متكرّرة لا تقابل بالانزعاج، مادام المجتمع يعترف بالهمس واللّمس مع الأخذ بمختلف المحاذير.

وعمل النساء وأموالهنّ تعتبر ملكيّة خاصة لا يتدخّل فيها الآباء، بل تكون خالصة لصاحبتها لتكتنز الذهب ومختلف أغراض الجهاز ولكنّها تبقى (هذه الأموال) تحلّ المعضلات الأسريّة وتصلح ذات البين وتساعد الآخرين، فلا يمكن تخيّل مدى التّآزر النسائي فيما بينهنّ في حالة الأزمات، والكلّ يتقدّم بالمساعدات والهدايا لإدخال الفرحة على المجتمع: فليس فقط الأهل هم المعنيّون بهذه المواساة الماديّة بل الجميع من جيران وأقرباء بعيدين وغيرهم من الوافدين.

بالفعل ما تزال الرحمة في «جانت» حسب الجميع، فبإمكان الغرباء أن يسكنوا وأن يأكلوا وأن تحاط بهم الرأفة من كلّ جانب وللنّساء إسهام عظيم بكلّ الماديّات المتوفّرة لديهنّ.